سنة إحدى وثمانين وخمسمائة

وفيها خلا ديوان الزمام ببغداد من نائب وزارة ، وكان الخليفة قد فوض الأمور بأسرها إلى أستاذ الدار ابن الصاحب وجعل الاختيار إليه فيمن يرتب ويعزل . فاستاذن ابن الصاحب الخليفة — ثبت الله دعوته — بأن يرتب عز الدين صدقة بن صدقة نائبَ وزارة ، وكان حاجباً بباب النوبى ، فأذن له الخليفة فى ذلك . فأحضره إلى داره وخلع عليه خلعة شريفة ، وأحضر حاجب الحجاب ابن جعفر وحجاب (٨٩ ب) الديوان بأسرهم وكل من يتعلق بالديوان العزيز من الكتاب وغيرهم ، وقال لهم : « إن الخليفة قد رسم أن يكون هذا — وأشار إلى عز الدين بن صدقة — نائب وزارة بالديوان العزيز أسوة بمن تقدمه فكونوا بين يديه وفى خدمته » فقالوا : « السمع والطاعة » ، ثم تقدم بأن يدخل مركوبه إلى الدار فأدخل وخرج من عند أستاذ الدار وقام له أستاذ الدار كل القيام ، وركب من الدار على الصُفّة وخوطب « بجلال الدين » . وخرج الناس بين يديه إلى باب الديوان ، فلما أراد النزول عضده ابن جعفر حاجب الحجاب ودخل وجلس فى حجرة الصلاة ، وأحضر الكتاب والخازن واعتبر أحوال الديوان ساعة ، ثم ركب وجماعة من الأمراء بين يديه إلى داره التى فى القرية بدار الخليفة فى درب البسنان ونزل بها ، وتقدم إليه أستاذ الدار « أن لا تعمل شيئاً إلا بأمرنا ، وإن كتبت شيئاً أكتبه إلينا » فقال : « السمع والطاعة » . وحضر جماعة من أرباب الدولة دار المذكور يهنئونه بالولاية . وأنشد الشعراء ، وحضر العلماء ، وانعكف الناس عليه .

وفى ذلك اليوم تقدم إلى ابن عبد الله بن الوكيل أن يكون بين يديه حاجب المجلس ، وخلع عليه وصار حديث الناس معه واستقل أمره أسوة من تقدمه ، وكان الناس يفضلونه فى الاحترام والإكرام على من تقدمه لأنه كان من بيت الوزارة ، وسأل بعد أيام من ولايته أن ينقل إلى

الدار التى كان فيها ابن البخارى — دار المطبق — وهى التى كان فيها عون الدين الوزير ابن هبيرة ، فأذن له فى ذلك فانتقل إليها ، وتقدم له بالإقطاع الذى كان لابن البخارى وهى جلالتا ومايجرى معها من أعمال طريق خراسان ؛ وحاصل هذا الإقطاع فى كل سنة عشرة ألف دينار إمامية . ونفذ نوابه إلى الإقطاع وتصرف فيه وحكم فى الديوان وبسط يده ولسانه . وكان أستاذ الدار ابن الصاحب كل ساعة يتقدم إليه بما يعمل ، تارة ينفذ إليه الحاجب أبا الرضا وتارة أبا (١٩٠) الشجاع وتارة مملان ، وما كان يتجاوز مايتقدم به إليه ، وكان عادة الوزير أو النواب الذين يسكنون هذه الدار لايركبون إلى صلاة الجمعة بل يمضون إلى الصلاة مشاة اقتداء بعون الدين بن هبيرة الوزير رحمه الله تعالى لأن حائط الجامع حائط هذه الدار من باب القصور الشريفة من دار الخلافة التى بابها فى المطبق وهى بجامع القصر ، وينزل الوزير والنائب إذا ركبا ببابها خطوات قريبة ، فقال جلال الدين بن صدقة . « ما أريد أن أمشى ولا أخرج إلا راكباً » ، وكان فيه تيه عظيم وتهور ومن تقدم عمل بنفسه ما أراد ، وقدم الفرس يوم الجمعة وركب من دخل الدار وخرج إلى الصلاة ، فعلم الناس أن هذه الحال تدل على جهله وقلة عقله ، وكان حاجب الحجاب يعضده عند ركوبه وعند نزوله ، ويطالع بجميع حركاته وما يتكلم به أو يتقدم به أو يطلقه أو يخرجه ويذكر ذلك كل يوم بمطالعة ويعرضها على أستاذ الدار ، فإن رأى فيها ما يستحسنه عرضه وإن رأى ما يكرهه لا يعرضه ، فعلم بهذه الحال أستاذ الدار .

* * *

وفيها رتب ابن عون الدين بن هبيرة حاجباً بباب النوبى الشريف ، وكان أستاذ الدار يرى فى حقه ويقرّ به ، وكان قد ربى معه فى المكتب ، وكان أستاذ الدار لايزال يصف دينه ويسدد رأيه ، وخلع عليه خلعة جميلة

وخدع عليه أيضاً أستاذُ الدار تشريفاً جميلا ، وكان نائب[1] الباب ابن الظهيرى وصاحب الخبز بالباب ابن الحلال ، وقاضى الباب ابن الصباغ قاضى الربع ، وكتب ما كتب حاجب الباب ابن الظهيرى رقعة إلى العرض الأشرف أن ينعم عليه بالتشريف على عادة أمثاله . فخرج الأمر بإحضاره إلى الديوان العزيز وتشريفه فأحضر وشرف بخلعة سوداء وعمامة سوداء وسيف مذهب وفرس .

* * *

وفيها كتب صفى الدين بن عمارة رقعة إلى الخليفة يذكر فيها (٩٠ ب) « أن أرباب الأملاك بناحية بعقوبا[2] وناحية بُوَهْرِز[3] قد أخذوا جملة كبيرة من أموال الوقف أجلهم الله تعالى ، ولو تقدم[4] باعتبار ذلك وتحقيق ما قد صار إلى المذكورين لحصل له من المال مبلغ كبير » ، فأنفذ الخليفة الرقعة إلى أستاذ الدار وتقدم إليه بأن ينفذ مع ابن عمارة جماعة لاعتبار هذه الأحوال ، فتقدم أستاذ الدار إلى نائب الوزارة جلال الدين بن صدقة بأن يتولى ذلك ويدبره ، فأحضر المحتسب ابن الرطى ومعه عدل من عدول الحضرة ، وتقدم إلى ابن عمارة بأن يخرج ويحقق ذلك فخرج ، وكان ابن صدقة قد عرض الرقعة على الخليفة - دام ظله - وقد حسن له هذه الحال ؛ فمضى ابن عمارة ومسح الأملاك بناحيتى بعقوبا وبُوَهْرِز ، فحضر إلى الديوان خلق كبير من الناحيتين واستغاثوا يوم الجمعة قدام الخطيب بجامع القصر

---

(١) فى الأصل « حاجب » وفوقها « نائب » .

(٢) بعقوبة من مدن العراق ، كانت على الطريق المؤدى الى بغداد وتقع بأعلى النهروان ، راجع : مراصد الاطلاع ١/١٥٤ ، ولى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٨٥ — ٨٦ .

(٣) بوهرز : بضم الباء وفتح الواو و سكون الهاء وكسر الراء : قرية كبيرة تحت بعقوبا ، راجع مراصد الاطلاع ١/٢٣٢ .

(٤) اى الخليفة .

الشريف ، وأنهى ذلك إلى الخليفة من جانب أستاذ الدار ، وكان ابن صدقة يمنع من يتألم [1] ، فتقدم الخليفة بإحضار ابن عمارة إلى الديوان وإحضار قاضى القضاة ابن الدامغانى والمحتسب ابن الرطبى وأمر بإحضار أرباب الأملاك وينظرون تكييف هذه الحال ويطالعونه بحقيقتها ، فحضر الجماعة وجلس صدقة بن صدقة فى بيت الجيش الكبير وسمع ماذكره ابن عمارة من زيادة الأملاك ، وتقدم إلى الملاك بإحضار كتب أملاكهم واعتبارها وطال الحديث فى ذلك، وكان المجمل على أهل بعقوبا وأهل بوهرز من الذهب مائة ألف دينار إمامية، وأرباب الأملاك لايعترفون بشىء من ذلك ، فوقع الخليفة بتقليد ذلك قاضى القضاة « فان ثبت عنده شىء يحكم به وإن لم يثبت عنده شىء فلاحاجة لنا بأموال الرعية » ، فقال قاضى القضاة « ماثبت عندى إلا حجج الملاك فحسب » فقال ابن عمارة وصدقة بن صدقة : « يؤخر هذا إلى أن يحضر من يشهد به لبيت المال وما قد أخذ [2] ....

(٩١ ا) سعادة لو أحاط الحارمى بها
لعاد فيما ادعاه وهو حَزْنانُ
فاسعد بها دولة غراء ما ادّرعت
بمثلها حمير قدما وساسان
واسلم ، تدوم لنا النعمى فإنك ما
سلمتَ فى جذل ، فالدهر جذلان
لازلت بدر سمـاء يستضىء به
ويهتدى مظلم منا وحيران

---

(١) لعلها « يتكلم » .

(٢) الظاهر أن بعد هذه الكلمة ورقة — على الاقل — ضائعة لعدم وجود رابط بين مجرى الكلام وما يلى .

ولا سعى لك صرف الدهر فى حرم
ولا رآى وجهَ من يرجوك حرمان

* * *

وفيها كتب جلال الدين صدقة بن صدقة نائب الوزارة مطالعة إلى الخليفة يكثر القول فيها فى حق أستاذ الدار بن الصاحب وأن الديوان يحكم فيه برأيه ، والأموال تجبى إليه ومايقدر أحد يستوفى لبيت المال منه شيئاً . فوقف الخليفة على المطالعة وكتب عليها إلى ابن صدقة يصدقه فيما ذكره ، فتيقن ابن صدقة وظن فى نفسه أن الخليفة قد تغير على أستاذ الدار وأنه يقبل القول فيه ، وكان ابن صدقة ضعيف الرأى قليل التصور اعتقد أن الخليفة هو الذى اختاره لهذه الولاية وأن أستاذ الدار لم يكن له فى ترتيبه شىء ، فصار إذا تقدم أستاذ الدار بأمر يتعرض هو لإبطاله ويقول : « لا أفعل هذا الأمر إلا بتقدم الخليفة ، وأستاذ الدار لا يعلم كيف هذا الأمر » ، فلما حضر عند الخليفة قال إنه قد جنح أمرنا فى الديوان وصار هذا النائب إذا تقدم إليه بأمر يقول : « لا أفعله » ، فقال له الخليفة « كأنك ماعلمت أنه كتب إلىّ مطالعة يذكر فيها كذا وكذا فى حقك وهذا مايجىء منه خير ، إن شئت أن تصرفه فاصرفه ورتب غيره من شئت ، فذاك إليك » . وكان هذا جميعه من غير طينة نفس الخليفة لأنه قد تغير على أستاذ الدار ولا (٩١ ب) يُظهر له ذلك من شدة خوفه منه ، فخرج أستاذ الدار من عند الخليفة ونفذ الحاجب ململان إلى الديوان بأمر ، فقال نائب الوزارة ابن صدقة : « ما هذا ديوان الأبنية ، هذا ديوان الخليفة ، مايقدر أحد يتقدم فيه بأمر إلا بأمر الخليفة » ، فرجع الحاجب ململان وحكى ماجرى من ابن صدقة لأستاذ الدار فعظم ذلك عليه وشاع ذلك فى بغداد وقال الناس: « هذا دليل على تغير الخليفة على أستاذ الدار » وكثر القول فى ذلك ، وكثرت معاداة ابن صدقة لأستاذ الدار ومباينته له ، فكتب أستاذ الدار

إلى الخليفة أسماء جماعة لكى يختار منهم شخصاً لنيابة الديوان ، منهم عارض الجيش ابن الدرانج وشرف الدين بن الخلال وحاجب الباب ابن هبيرة ونجم الدين بن الثقفى ، وذكر أن هؤلاء الجماعة كلاً منهم يصلح أن يكون نائب وزارة ، ومدح ابن هبيرة حاجب الباب وذكر أنه كان ينوب فى الديوان عن أبيه وبالغ فى القول ، فبرز خط الخليفة يقول: « إن ابن الدرانج - عارض الجيش - أصلح من هؤلاء ، وبعد هذا فالحديث معك ، والرأى إليك فى ترتيب من شئت ، فليس لنا فى هذا حديث » ، فنفذ[1] إلى ابن الدارنج وتحدث معه وعرفه الحال وقال : « إذا ركب نائب الوزارة إلى الديوان عرفونى حتى أنفذ إليه أعزله ليكون ذلك أكثر فى الشناعة عليه وكسر الحرمة » ، فحملت دواة ابن صدقة إلى الديوان ، وجاء من أخبر بركوبه فتقدم أستاذ الدار إلى الحاجب أبى الرضا أن يأخذ معه جماعة من الحجاب وجماعة من أصحابه من ديوان الأبنية ويمضى إليه ويقول لنائب الوزارة ابن صدقة : « قد استغنى عنك فالزم بيتك ، فمضى الحاجب إلى الديوان فلم يجده ، فرجع إلى داره فدخل عليه وقال له : « إلزم بيتك فقد (١٩٢) استغنى عنك » .

ثم تقدم إلى الحاجب أن يحضر معه جميع النواب بالديوان العزيز ويحضرون إلى الديوان ، ففعل ذلك ثم رجع الحاجب أبو الرضا إليه وقال له : « قد تقدم إليك أن تحضر جميع[2] ما يكون عندك من خطوطه ولا يبقى عندك منها شىء » ، ففعل ذلك وحلف بالنعمة الشريفة أنه لم يبق عنده شىء ، وكثر القول من الناس أن أستاذ الدار قد تحكم فى دار الخلافة بحيث لو أراد أن يعزل الخليفة لفعل . وكثر خوف الناس من أستاذ الدار فكان الأمراء وأرباب الدولة يترددون إلى خدمته خوفا منه .

---

(١) أى أستاذ الدار .

(٢) فى الأصل « مكتوب » .

وكان جماعة من الناس يقولون إن الخليفة يريد قتل أستاذ الدار وأن هذا جميعه استدراج له .

ثم إن أستاذ الدار أحضر بهاء الدين عارض الجيش إلى داره وأدخله إليه خلوة ، ثم أذن للناس بالدخول إليه فلم يبق من أرباب الدولة أحد ، وأذن لجميع الناس ذلك اليوم بالدخول عليه فدخلوا . فلما استقر بهم المجلس التفت أستاذ الدار إلى عارض الجيش وقال له: « أدع للخليفة وأعلم أنه عيّن عليك فى نيابة الديوان العزيز وأخرج من ذمته مظالم العباد وفوضها إليك ، فيجب أن تنظر لنفسك وتبصر أين تضع قدمك ، فلا تمكن من ظلم أحد ، ولتكن سيرتك حسنة ليحسن الذكر ويكثر الدعاء لهذه الأيام الزاهرة » ، فبكى عارض الجيش بكاء شديدا إلى أن تعجب الناس من ذلك ، ثم التفت أستاذ الدار إلى حاجب الحجاب والكتاب وحاشية الديوان وقال لهم : « قد رسم أن مرجع أمركم إلى هذا ، وهو المستخدم لكم ولا يخالفه أحد فى أمر من الأمور » ، فقالوا : « السمع والطاعة » ، ثم قال له : « انعم باسم الله » ، فقام ليخرج من عنده فقام له أستاذ الدار على قدميه .

ثم تقدم أستاذ الدار أن يدخل مركوبه إلى وسط الدار ويركب من موضع جرت عادة النواب ، فخلف ابن الدارنج أنه لا يركب إلا[1] خارج (٩٢ ب) الدار فلم يمكن من ذلك ، وركب على طرف الإيوان الذى يلى الباب وخرج والناس بين يديه والمماليك والأمراء والحجاب والكتاب وغيرهم من الناس ، وجلس فى حجرة الصلاة ، وكتب مطالعة تشتمل على حضوره فى الديوان وشكره الأنعم الشريفة ، ونفذ المطالعة إلى باب الحجرة ، وخرج الجواب إليه بأن يطيّب نفسه ويشرح صدره ، واستقل بالنيابة .

* * *

(١) فى الاصل « الى » .

ذكر ما تجدد للملك الناصر صلاح الدين
فى هذه السنة بمصر والشام من الفتوحات والغزوات

ودخلت هذه السنة والسلطان مخيم بحماه معول على قصد الموصل ، فلما دخلت أيام من المحرم سار بعساكره متوجها إلى حلب ، فلما قرب من تل السلطان خرج للقائه أخوه الملك العادل سيف الدين ومعه عسكر حلب وكان صاحبها ، فاستبشر السلطان بلقائه ثم سار من تل السلطان فنزل بظاهر حلب فأقام أياما حتى اتصلت به العساكر ، وسار منها متوجها إلى الفرات فنزل بمكان يعرف برسا تحت ألبيرة على فرسخين منها ، فلم يزل هناك ثلاثة أيام حتى تكامل عبور جميع العسكر ، ثم رحل متوجها إلى حران ، فلما وصلها ضرب خيمة فى ظاهرها وكان بها مظفر الدين كوكبورى وكان قد وصل رسوله ابن ماهان إلى السلطان قبل عبوره الفرات يحثه على العبور والوصول إلى حران ، وقال إن مظفر الدين قد كتب خطه بخمسين ألف دينار يوم الوصول إلى حران تكون برسم النفقات ، وكتب خطه للسلطان بذلك .

فلما وصل السلطان إلى حران بقى بها أياما ومظفر الدين لاتجرى منه حركة بما بذله رسوله ، والسلطان من كرمه لا يندبه إلى ذلك .

فلما كان بعد أيام أنفذ إليه قاضى العسكر شمس الدين بن الفراش والعماد الكاتب الأصفهانى وقال لهما : « امضيا إلى مظفر الدين (١٩٣ ا) واكشفا عن أمره وأخبراه بما أخبر عنه رسوله من المال الذى بذله » ، فمضيا إليه ، فلما بصر بهما كأنه علم بما جاءا به فقام قبل أن يقعدا ، وجاء بالمصحف الكريم وحلف به أنه لم يبذل شيئا مما ذكر عنه ، وأن رسوله كذب عليه فيما ذكره ، فرجعا إلى السلطان وأخبراه بالقصة فسكت عن بيانه مطرقا .

فلما أصبح ركب إلى الميـــدان ساعة واستصحب معه مظفرالدين

إلى سرادقه على العادة ، ثم أمر به فنقل إلى خيمة ووكل به فيها ومنعه من أصحابه ، فهاج العسكر واجتمع الأمراء عند السلطان وتكلموا وقالوا له : « إن هذا لا تأمنه ولا تخلى سبيله ، والرأى أن تنقله إلى قلعة حلب فتسجنه بها » ، فلما انصرف الأمراء من عنده تقدم إليه الفقيه عيسى وقاضى العسكر وذكراه الصفح والإحسان، فقال للفقيه عيسى: « إمض إليه وطيب نفسه وسكن روعه» ، فمضى إليه وعرفه ذلك فقال : « السلطان مالك رقّى ، وأنا أخرج له مما معى من البلاد وأكون بين يديه برسم الخدمة كأحد المماليك» فقال له : «بل تسلم إليه قلعتى الرها وحران» ، فقال : «السمع والطاعة» فرجع إلى السلطان وعرفه الحال فأمر له بتشريف جميل يليق به واستدعى به ، فقبل الأرض بين يديه وتسلمت منه القلعتان ثم أعيدتا إليه فى آخر السنة . وأقام السلطان بحرّان [شهر] صفر وتوجه منها إلى رأس[1] عين فى مستهل شهر ربيع الأول فنزل بها يوما واحداً ، ثم رحل منها إلى دارا فنزل بها فتلقاه صاحبها ؛ ووصل فى تلك الحال عماد الدين أبو بكر بن قرا أرسلان بعساكر ديار بكر وآمد عوضا عن أخيه نور الدين وكان قد تأخر لمرض عرض له ، فشكره السلطان وأجزل له العطاء . ثم رحل السلطان إلى نصيبين وسار منها إلى بين النهرين فضرب مخيمه هناك، ووصل إليه معز الدين سنجر شاه بن غازى بن مودود بن زنكى حاجب (٩٣ب) الجزيرة ، فاستبشر السلطان بقدومه ووفّر له من إحسانه، وسار بعساكره إلى طريق الدولعية[2] قاصدا

---

(١) رأس عين أو رأس العين . وهى فى الأصل رأس عين الخابور ، وهو مدينة كبيرة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين وتكثر بها العيون حتى يقال انها تبلغ ٣٦٠ عينا ، وقد أورد ابن حوقل وابن جبير — على ما فصل الزمنى بينهما — وصفا لها ، وكانت هذه العين تعرف عند الرومان باسم Resaina ، انظر مراصد الاطلاع ٥٩٣/٢ — ٥٩٤ ، ولى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٢٥ والمراجع الواردة هناك فى حاشية رقم ٣٠ .

(٢) فى الأصل « الدولبية » والتصحيح من مراصد الاطلاع ٥٤٢/٢ حيث عرفها بانها قرية كبيرة بينها وبين الموصل يوم فى طريق نصيبين ، وانظر ابن واصل : مفرج الكروب ١٦٦/٢ .

إلى دجلة ، فنزل على بلد من شاطىء دجلة فى آخر شهر ربيع الأول ، ووصله الخبر بوفاة نور الدين بن قرا أرسلان صاحب آمد يوم الاثنين رابع عشر من الشهر المذكور ، فأمر أخاه بالرجوع إلى تلك البلاد وأمره بترتيب أمورها ، ثم رحل منها فضرب مخيمه على الإسماعيليات وأقطع البلاد الأجناد ، وسير الأمير سيف الدين على بن أحمد المشطوب الهكارى ومعه جماعة من الأمراء[1] إلى العقر وأعماله[2] .

وأمر السلطان بعمل جسر فنصب ، وعبر مظفر الدين بن على صاحب حرّان وخيم بالجانب الغربى ومعه جماعة من الأمراء، وجاء أخوه زين الدين من إربل[3] بعسكره وجماعته وأمر الناس بترك القتال وتأخير الزحف ، وأرسل القاضى ضياء الدين الشهرزورى برسالته إلى الديوان العزيز فى إنهاء الأحوال وشرح الأسباب المقتضية لنهوضه لخدمة المواقف المقدّسة الناصرة لدين الله ، وأن المواصلة كاتبوا البهلوان بضرب الدرهم والدينار باسم السلطان السلجوقى ليظهروا بنصره ، وأنهم بعد ذلك راسلوا الفرنج يغرونهم بقصد الثغور وكشف ما اعتادوه من الظلم ، ويذكر أيضاً ما افتعلوه من مبايعة ابن أخيهم سنجر شاه بن غازى وابن زين الدين صاحب أربل وما ضيّعوا من محافظته ، وأنهم لم يرعوا حقه ولا حق أبيه الذى حفظ بيتهم ، وأشياء كثيرة لم نذكرها .

* * *

(١) فى الأصل « الاكراد » وفوقها « الامراء » ، أما العقر فقرية بين تكريت والموصل تنزلها القوافل ، أنظر مراصد الاطلاع ٣/٩٥٠.

(٢) سار ابن المشطوب الهكارى الى قلعة الجزيرة حيث تجمعت لديه حشود كثيفة من الاكراد الهكارية ، أنظر الكامل لابن الاثير ، ١١/٢٠٨ ، هذا وقد أرسل الصلاح جماعة من الامراء الحميدية الى العقر واعمالها لافتتاح قلاعها ، راجع ابن واصل : مفرج الكروب ، ٢/١٦٧ .

(٣) مدينة كبيرة لها قلعة حصينة ذات خندق عميق فى طرف المدينة يقسم سور المدينة فى نصفها ، والقلعة على تل عال من تراب وهى أكبر من قلعة حلب وأوسع منها ، راجع فى ذلك مراصد الاطلاع ١/٥١ .

فصـــل

من كتاب عن السلطان الى مجد الدين بن الصاحب أستاذ الدار الامامية فى وجه ما شرحه من الحال :

« قد أحاط العلم الكريم بأن التوجه لم يكن فى هذه السنة من دمشق إلى حلب إلا للجهاد فى سبيل الله عز وجلّ فإنه غاية الأرب وذلك بنية غزاة (١٩٤) أنطاكية . فإن غزاة الفرنج من جانب دمشق إنما تستقيم أسبابها ، وتستتبّ آرابها إذا كانت عساكر مصر حاضرة ، والأيدى بقوتها متظاهرة ، وكانت العساكر المصرية قد طالت بالشام إقامتها ، وتوفّرت فى ملازمة الخدمة فى البدارات عرامتها ، فرأى إراحتها واستجمامها ، وعادت إلى مصر لتستجد استعدادها واهتمامها ، ووصل إلى حلب لقربها من البلاد الإسلامية لتجمع العساكر منها لغزاة أنطاكية ، وطمع أيضاً فى وصول العسكر الموصلى للإنجاد . والمساعدة من سائر الجهات على الجهاد ، والاستظهار منها بتوافر الأمداد ، فإن رسل المواصلة ما زالوا متردّدين ، وللخديعة بالقول والكتب مجدّدين ، وهم فى أثناء ذلك يراسلون الجوانب ، ويكاتبون الأجانب . ويرتقبون النوائب ، وتذهب بمعاودتهم الأوقات ، وتحدث دون قصدهم الحادثات ، فهادن أنطاكية هدنة آذنت بغبطة الإسلام ، وخلّص من طال إساره من ذوى الإقدام ورجال الشام ، ورأى أن المواصلة لا ينزلون عن المحتمين به ، ولا يرفعون أيديهم عن المعتصمين بسببه ، ومنهم صاحب الجزيرة وصاحب إربل ومن بتكريت والحديثة وغيرها ، وأنهم لا يقفون فى المكر والخديعة عند أمد ، وأن رسلهم متناوبة إلى كل أحد . فسار على أنه يلحق البلاد قبل هجوم الحرّ ، ويصل إليها فى وقت إمكان الحصر ، فما وصل إليها إلا والحر قد اشتد استعاره ، والقيظ قد تأججت ناره ، ورأى الوقت يعسُر فى تقديم آلات الحصار ، ويخشى عليها مع نار الهجير من قبول النار ، فإنه

استصحب منجنيقات ودبابات ، وأخشاباً[1] لعمل البرج مهيبات ، و وقد الظهيرة يؤثر فيها، ويشق أيضاً لبس الدروع على مستليها ، فلم يبق إلا المقام بنية المطاولة والمصابرة ، والتمهل إلى أن يطيب الزمان ويتيسر إمكان المحاصرة ، فتوطّن عزمه على التوطّن ، وأقام بنية التثبّت وقوة التمكن ، (٩٤ ب) وأقطع البلاد والولايات ، وولى الإقطاعات ، وخيّمت العساكر المنصورة بشرقى الموصل وغربيها فضيقت خناقها ، وملأت بنجوم الأسنّة آفاقها ، وتصرّفت فى أعمالها ، وتفرّقت فى سهولها وجبالها » .

ومنه :

« ورأينا أن مقامنا بغير شغل ، فأفكرنا فى أمر يقوم مقام الحصار سهل ، وهو أنّا وجدنا الماء فى أوان نقصانه ، وأنه إذا سُدّ وحوّل فهذا زمان إمكانه ، فركبنا وشاهدنا موضع التحويل ، وأيقنا من الله تعالى بنجح التأميل ، « وذكر[2] المهندسون أهل الخبرة أنه يسهل تحويل دجلة الموصل عنها ؛ بحيث يبعد مستقى الماء منها ، فحينئذ يضطر أهلها إلى تسليمها بغير قتال ، ولا حصول ضرر فى تضييق ولا نزال ؛ واستدعى لذلك الآلات واشتغل بجمع صناع ورجال » .

وأصدر أيضاً كتاباً إلى الديوان العزيز بمقتضى ذلك .

* * *

رجعنا إلى إتمام الحديث .

---

(١) فى الأصل « اخشابات » .

(٢) يستفاد مما ذكره أبو شامة : الروضتين ٦٣/٢ ان العبارة المحصورة بين قوسين من كلام العماد فى رسالة له الى الديوان العزيز . راجع الروضتين ٦٣/٢ .

ولم يزل السلطان محاصراً للموصل مواظباً على مضايقتها إلى أن أتاه الخبر - بوفاة شاه أرمن صاحب خلاط - يوم السبت العشرين من شهر ربيع الآخر، وكانت وفاته يوم الخميس الرابع[1] منه، فحينئذ ترددت الآراء وكثرت المشورات وأتى إليه الأمراء وذوو الرأى منهم من أشار عليه بالمسير إلى تلك الديار، ومنهم من قال له: «تجمع بين الأمرين فتترك بعض العسكر بقدر ما تضايق به البلد من الجانبين، وتعجل بالمسير لأخذ تلك الخطة»، فلما أصبح وردت عليه[2] كتب أولياء الدولة بخلاط وتلك الولايات وبدليس[3].

ووصل من أمراء خلاط عماد الدين ملك، وحرض السلطان على المسير إلى تلك الديار وقال: «هذه الموصل ملك ما يخشى فواتها» فبقى السلطان مفكراً فى أمرها فى يومه وليلته. فلما أصبح عزم على الرحيل عن الموصل، ثم أمر الرسول بالمسير إلى بلد خلاط، وأمر أمراءه بالتأهب وعرفهم ما عزم عليه من قصد تلك الخطة، ثم أرسل إلى (١٩٥) زين الدين بن على كوجك صاحب إربل بالرجوع إليها، وجعل فى معونته الأمير سيف الدين على بن أحمد المشطوب.

* * *

ذكر رحيل السلطان من الموصل الى ديار بكر ومسير ناصر الدين محمد ابن شيركوه ومظفر الدين بن على كوجك فى المقدمة الى خلاط، وذكر وصول بهلوان بن أيدكز الى المغرب.

فيما كان رحيل السلطان عن الموصل بعساكره فى أواخر شهر ربيع

---

(١) فى الكامل لابن الاثير، ١١/٢٠٩: وعنه أخذ مفرج الكروب، ٢/١٦٨: «التاسع» والصواب ما هو وارد بالمتن أعلاه.

(٢) وذلك خوفا من أن يمكلها العجم.

(٣) الضبط من مراصد الاطلاع ١/١٧١ حيث عرفها بأنها بلدة من نواحى أرمينية قرب خلاط، لكن انظر لى سترانج: بلدان الخلافة الشرقية، ص٢١٨، وحاشية رقم٢٣ والمراجع المذكورة هناك.

الآخر من السنة وتقدم إلى ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه بأن يتقدم إلى خلاط ، وأردفه بمظفر الدين [بن زين الدين] صاحب حران ومن تابعهما ، فلما وصلوا إلى خلاط وجدوا سيف الدين بكتمر — أحد مماليك شاه أرمن — [١] قد دخلها وحمى معقلها ، فوقف ناصر الدين ومن معه دونها ، وجاء شمس الدين بهلوان أبو جعفر محمد بن أيدكز [٢] فى عساكر الشرق ونزل بقرب خلاط أيضا ، وكان وزير خلاط مجد الدين أبو الموفق بن رشيق يكاتب السلطان [صلاح الدين] مرة ويكاتب البهلوان أخرى ، ويكتب إلى ناصر الدين [بن شيركوه] بالإقامة .

وأما السلطان فإنه سار متوجها إلى ديار بكر فخاف جميع متملكيها من قدومه إليهم .

فأما النظام البقش — متولى ماردين — فإنه احترز وتحصن ؛ وأما صاحب آمد فإنه خاف على نفسه من السلطان أن يأخذها بعد موت أبيه نور الدين [محمد بن قرا أرسلان] ، وأشار على السلطان جماعة من الأمراء بأخذ آمد وقالوا له : « إنما أنت وهبتها لنور الدين ولا حرج عليك فى أخذها من ولده مع كونه طفلا ، وأنه قد امتنع أن يأتى إلى الخدمة » فقال : « هذا أمر لا يفوت استدراكه ، ونحن نتقدم بإيفاد من نثق به إليهم ونتأمل ماهم عليه ونبنى الأمر على اليقين » . فندب إليهم القاضى شمس الدين محمد بن محمد بن الفراش ، فحين دخل إلى آمد وجدهم على جادة العزم على الوصول إلى الخدمة فتركهم ، وأتى إلى السلطان فخبره بوصول (٩٥ب) قطب الدين سليمان — ولد نور الدين محمد بن قرا أرسلان — ، وكان

---

(١) كان شاه أرمن فى ذلك الوقت هو ناصر الدين سلمان بن ابراهيم ، راجع زامباور : معجم الأنساب ، ص ٢٤٨ .

(٢) « ايلدكز » فى مفرج الكروب ، ٢/١٦٨ .

وصول السلطان إلى ميافارقين في العشر الأول من جمادى الأول ، فرأى أهلها مفارقين لطاعته ، وأتاه كتاب ناصر الدين محمد بن شيركوه يستأذنه بالوصول إليه ، فأذن له بذلك وقال : « الرأى أن نبتدىء بحصار ميافارقين وفتحها » ، وشاور أصحابه وأمراءه فى ذلك فقالو له : « الرأى ماتراه » .

* * *

ذكر حصار ميافارقين

ولما علم النظام البقش بمسير السلطان إلى تلك الجهة ندب من أصحابه الأمير أسد الدين برتقش وأمره بالمسير إلى ميافارقين ، فلما وصلها بذل يده فى الأموال وفرّق على الرجال ، ونصب المنجنيقات والعرادات ، وملأ الأبراج بالأجناد ، وأرعد وأبرق وأنف واستكبر، فلما عاين السلطان ذلك أمر عساكره بالاستعداد ونصب المناجيق فنصبت ، وأمر الناس بالقتال والزحف ، وطال القتال عليها صباحاً ومساء ، وخرج جماعة منهم وأحرقوا منجنيق السلطان ، فقتل من الفرقتين جماعة كبيرة وقتل يوسف المنجنيق ، وكان مقداماً شجاعاً ، وكان فى كل يوم تشتد الحرب ويكثر النزال ، وكانت الأمور لا تزداد إلا شدة ، وطال الحصار ودام .

وكانت خاتون بنت قرا أرسلان — زوجة قطب الدين صاحب ماردين — حينئذ بميافارقين[1]، وكانت تحرض الناس على القتال، وكانت ذات يتامى ولها حالة حسنة معروفة بالصلاح والتقى ، فلما لج الحصار وطال الأمر وتمادى راسل السلطان الأمير المذكور بميافارقين يستلينه ويستكشف

---

(١) عرفها مراصد الاطلاع ١٢٤١/٣ ، وياقوت : معجم البلدان ٧٠٣/٤ وما بعدها بانها أشهر مدينة بديار بكر ، ويظن أنها من بناء الروم ، انظر وصفها الجغرافى والتاريخى فى لى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٤٣ — ١٤٤ ، حاشية رقم ٢٠ ، ٢٢ .

نهج الجواب من جانبه ، ويرغبه تارة ويستعطفه تارة ، ثم يتوعده تارة ويتهدده أخرى ، فذكر أنه يقضى حق من وجب عليه حقه ، يعنى بذلك صاحبه، وذكر « أن قطب الدين مذ درج إلى رحمة الله تعالى لم تزل الخاتون مالكة الأمر ونحن لها مطيعون » .

فراسل السلطان حينئذ خاتون مرة أخرى وهى لا (١٩٦) ترجع إليه جواباً يشفيه ، ثم إنه قال لها : « إنا لا نبرح هاهنا حتى نفتح ميافارقين . وإنا — نحن — أولى بحفظ بيتك ورعاية حقك ، وهذه البلدة إذا دخلناها فلا خروج لنا عن رضاك ونصاهرك فى إحدى عقائلك » ، ولم يزل بها حتى طابت نفسها بما بذله السلطان لها .

وراسل [السلطان] عند ذلك الأمير الأسدّ [برتقش] وقال له : « دع اللجاج والمجانبة فإن خاتون قد مالت إلى جانبنا » ، فلما بلغه أن خاتون قد وافقت السلطان على مراده لانت عريكته [و] ضرع إلى رأى السلطان واستقر أن ينقطع إلى خدمته وأن يكون فى جملة من شملته سوابغ نعمته ، وأن يخصه بجنلجور[1] وأعماله ، وأن يقرر مع خاتون أن يبقى ماكان عليها باسمها من المواضع واسم خدامها ، وسألت أن يفرد لها حصن الهتاخ[2] ، وخطب السلطان إليها إحدى بناتها لابنه الملك المعز فتح الدين اسحق[3] والتمست منه ماقرره على يمينه ، فسارع إلى مرادها .

* * *

(١) ذكر ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ٣١١/١ انه اسم لكورة كبير متصلة بديار بكر من نواحى أرمينية فيها قلاع وقرى للأرمن .

(٢) الضبط من معجم البلدان ، ومراصد الاطلاع ١٤٥١/٣ .

(٣) وكان عمره اذا ذاك لا يتجاوز الحادية عشرة ، راجع شفاء القلوب ، ورقة ٧٣ أ والروضتين ٢٧٦/١ .

ذكر ميافارقين وفتحها

ولما كان يوم الأربعاء آخر يوم من جمادى الأولى تقدم السلطان إلى القاضى نجم الدين بن عصرون والعماد الكاتب الأصفهانى بالدخول إلى ميافارقين لعقد النكاح على ابنة قطب الدين لولده اسحق ، وكان وكيل السلطان لابنه : العماد الكاتب ، ووكيل ابنة قطب الدين القاضى نجم الدين ابن عصرون لتقرير المهر وتسليم النقد ، وجلس السلطان فى سرادقه للهناء . وخرج إليه الأعيان من البلد ، ونفذ إلى خاتون هدايا وتحفا برسم المخطوبة، وأنعم على الأمير أسد الدين بجنلجور ، وشرفه تشريفاً جميلا .

ووصل عند ذلك قطب الدين سكمان بن محمد بن قرا أرسلان . وأمر السلطانُ الأمراءَ بلقائه ، ثم خرج من بعدهم فتلقاه بالإكرام، ولم يزل عنده مكرما ثم شرفه وأمره بالرجوع إلى آمد موفور الحظ من جانبه ، وفوض السلطان ولاية تلك الأماكن والبلاد إلى (٩٦ ب) مملوكه حسام الدين سنقر الخلاطى .

* * *

ذكر رحيل السلطان من ميافارقين ونزوله على شاطىء قراماز

ورحل السلطان من ميافارقين ونزل على الموضع المذكور وراسل البهلوان ، وكان السبب فى وصوله مراسلة سيف الدين بكتمر له وتخويفه من السلطان ، وأنه متى أخذ خلاط واستولى على ممالكها قصد جميع بلاد العجم ، وحمل إليه مع ابنته — زوجة شاه أرمن — مالا جزيلا ، وندب السلطان الفقيه عيسى إلى مجد الدين بن رشيق الوزير بخلاط فتكلم معه فأحال الحال على البهلوان ، وأنكم لو استعجلتم قبل وصوله إلى البلاد لتم المراد » .

ثم إن الفقيه عيسى ندب شخصا من أصحابه للتجسس على عسكر البهلوان وتصفح الأحوال ، فلما توسط عسكره نذروا به فادعى أنه رسول من صاحبه الفقيه عيسى رسول السلطان ، فطلبوا منه حينئذ وصول الفقيه عيسى إليهم فكاتبه بذلك ، وأرسل الفقيه عيسى كتابه إلى السلطان يعرفه صورة الحال ، فكتب السلطان إلى البهلوان بإرسال الفقيه عيسى إليه ، فتوجه الفقيه عيسى حينئذ إلى البهلوان فأكرمه إكراماً عظيما ، فشرع الفقيه عيسى بالصلاح وفتح أبواب الاستعطاف والاستمالة فيما بين الفئتين ، ورجع وفى صحبته رسول البهلوان إلى السلطان فأكرمهم وأجزل لهم من عطائه ورجعوا موفورى الحظ من جانبه ، ورأى أن الأمر يتطاول فأخّره إلى حين انتهاز فرصة الإمكان .

* * *

ذكر وصول رسل السلطان الينا الى مصر والبشارة لنا بفتح ميافارقين

ولما فتح السلطان ميافارقين واستولى على ممالكها أرسل نجا بين بكتابه إلى والدى الملك الظفر — وكان حينئذ صاحب مصر والمستولى على ممالكها — يخبرنا بما منّ الله تعالى عليه من فتح (١٩٧) ميافارقين ، فشرعنا حينئذ بتزيين البلدين : القاهرة ومصر ، وأرسلنا رسلنا إلى جميع البلاد المصرية بذلك ، وضربت البشائر فى جميع الأماكن ، وسررنا بما منّ الله تعالى عليه من النصر والظفر ، وخلع على المبشرين له بذلك ووفر عطيتهم وشرّفهم .

* * *

ذكر رحيل السلطان من شاطىء قرامان وتوجهه الى الموصل

وذلك فى شهر رجب من السنة المذكورة فكان وصوله إلى نصيبين فنزل بها أياما حتى تكامل وصول العساكر إليه وذلك فى آخر الشهر

المذكور، ثم رحل من نصيبين فنزل على شاطىء دجلة بكفر[١] زمار بقرب الموصل وذلك بعد أربعة أيام من شعبان[٢] ، فحينئذ ضاقت على صاحب الموصل الأرض بما رحبت وغلقت أبواب الموصل وأحاطت بها العساكر واضطرب أهلها اضطراباً شديداً ، وكان السلطان يركب فى بعض الأيام ويشرف على البلد وينظر مقاصده، وكان يأتيه منذ نزل — على ماحكى لى — فى الرسالة[٣] من الموصل قوم بعد قوم ، فبينا هو على ذلك من حصارهم والتضييق عليهم إذ أقبلت عليه النساء الأتابكيات فخضعن له فى القول وسألنه عاطفته ، فأنزلهن خير منزل وأكرمهن غاية الإكرام وأجابهن إلى مارمنه منه وقبل شفاعتهن ، وقال لهن : « لابد من قاعدة نبنى عليها وتتألف عليها القلوب وتطمئن إليها الأنفس» . فاستقر الأمر أن يكون عماد الدين زنكى صاحب سنجار — أخو صاحب الموصل — وسيطا فى البين وحكما فيما يعود بمصلحة الجانبين . وسير السلطان رسوله إلى صاحب سنجار فى إيفاد رسوله، فأنفذ وزيره شمس الدين بن الكافى ، وكان من قبل قد سبق القول فى تسليم بلاد شهرزور[٤] وقلاعها وحصونها وضياعها وكذلك ماوراء الزابين[٥] من البوازيج والرستاق وبلد القراملية[٦] وبنى قفجاق ، فدخل (٩٧ب)

---

(١) كفر زمار قرية من قرى الموصل ،أنظر مراصد الاطلاع ١١٧٠/٣ .

(٢) وقد أقام بها شهرى شعبان ور مضان ، أنظر الكامل ، ٢١٠/١١ .

(٣) يعنى بذلك السفارة بين الجانبين .

(٤) هى احدى الكور الواقعة بين اربل وهمذان ، وجميع أهلها كرد ، وكان تعدادهم فى القرن العاشر الميلادى قرابة ستين ألف أسرة ، أنظر مراصد الاطلاع ٨٢٢/٢ ، ولى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢٢٥ — ٢٢٦ ، وحاشية رقم ٩ .

(٥) المقصود بالزابين هنا الزاب الاعلى وهو ما بين الموصل واربل ، ومخرجه من عين رأس جبل ، وهو يمتد حتى يفيض فى دجلة على فرسخ من الحديثة ، أما الآخر فهو الزاب الاسفل ومخرجه فيما بين شهرزور وأذربيجان ويفيض فى دجلة فوق تكريت ، انظر مراصد الاطلاع ٦٥٢/٢ ، اما البوازيج فبلد قرب تكريت ومصب الزاب الاسفل الى دجلة ، شرحه ٢٢٧/١ ، وياقوت : معجم البلدان ، وأما الرستاق فمدينة بفارس من ناحية كرمان ، أنظر مراصد ٦١٥/٢ ، وياقوت :شرحه .

(٦) « القرابلى » فى الكامل ، ٢١٠/١١ ، و « القرابلية » فى مفرج الكروب ، ١٧١/٢ . انظر فيما بعد ص ٢٢٥ س ١٢ .

شمس الدين بن الكافى وشمس الدين قاضى العسكر لأخذ العهد من صاحب الموصل على ما ذكرناه ، واستقرت القواعد على ذلك ، وضربت الدنانير والدراهم باسمه ، وخطب له على المنابر بجميع تلك الممالك .

* * *

نسخة

كتاب كتبه السلطان الى اخيه سيف الاسلام ملك اليمن يذكر فيه فتح ميافارقين وعوده الى الموصل وما جرى من الصلح ، وذلك بانشاء العماد الكاتب الاصفهانى

« كتابنا ونعم الله تعالى منوط بمزيد الشكر عندنا مزيدها ، محوط من السديد بأمها وفريدها ، حال من الاغتباط منهاجيدها ، حال فى محل الارتباط لنا أنيسها وشرودها ، والنصر ماض نصله ، والخير واضحة سبله ، والملوك وقد دانت لنا رقابها ولانت صعابها ، وذلت لعزتنا أعزتها ، وتوفرت للتناهى فى العبودية لنا هزتها ، فرسلهم على الأبواب العزيزة الذلة خاضعة ، عارضة للاستكانة ضارعة ، والممالك لمملكتنا خاطبة ، وفى عدلنا راغبة ، ولطلوع سنى إحساننا بكشف ظلم الظلم عنها طالبة ، والوجوه سافرة ، والأيدى ظافرة ، ولاشك فى إحاطة علمه بعبورنا الفرات فى صفر سنة إحدى وثمانين لإصلاح ديار بكر والموصل ، وفوزنا فى كل وجهة بالنصر العذب المنهل ، وأنا أقمنا أشهراً على بلاد الموصل وتصرفنا فيها ، وأنعمنا على الأجناد بأعمالها ونواحيها ، فاتفق اختلال أمر ديار بكر لمـــوت ملوكها وتبدد سلوكها ، فقصدناها وقررنا أمورها ، وأعدنا إلى مطالعها من سياستنا نورها ، وفتحنا ميافارقين وهى أم بلادها ومقلد نجادها ، ومركز محيطها ونقطة بسيطها ، فملكنا بها من ديار بكر رق ملوكها ، وأطلقنا بها شمس المهابة بعد دلوكها ، وأخمدنا الفتن وقد وقدت ، ونبهنا السنن (١٩٨) وقد رقدت ، وأحيينا العدل

وقد دثر ، وأنعشنا الفضل وقد عثر، ودخل الشتاء فخرجنا من تلك الديار بعد ضم شتاتها، ونظم مصالحها وصرف آفاتها، وآذن حيا رحمتنا رُفاتها ،ولأجل اعتصام الأطراف بنا واستمساكهم بسببنا ، ومنهم صاحب الجزيرة معز الدين سنجر شاه بن أخي صاحب الموصل . وزين الدين بن زين الدين على كوجك صاحب إربل رأينا أن نقيم فى بلاد الموصل لنشتو بها إلى الربيع، ونستجد حينئذ فى فتح البلاد حسن الصنيع . ولما تحقق صاحب الموصل هذا العزم ، وخشى هذا السهم ، ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وضاقته الهموم التى وجفت لها القلوب ووجبت ، فألقى سلاحه ، وطلب بالصلح صلاحه ، وخفض بضراعته جناحه ، وحفظ على أهله فينا نجاحه . ولم يزل لنا مذعنا ، وكان حلمنا لمأمن روعه لما أتى مؤمنا ومؤمّنا، ونزل لنا عن جميع ماوراء الزاب من البلاد والقلاع . والحصون والضياع ، وشهزور ومعاقلها وأعمالها . وولاية بنى قفجاق وولاية القرايلى[1] والبوازيج وعانة. وقررنا عليه الموصل وأعمالها على أنه يكون بحكمنا . وينفذ عسكره إلى خدمتنا ، وتكون الخطبة والسكة باسمنا وسمتنا . وأن يطلق المظالم، ولا يرتكب فيها المآثم ، وقد حصلت لنا من صاحب الموصل ومن جميع من بالجزيرة وديار بكر الطاعة والسكة والخطبة ، وصارت فى كل خطة لدولتنا الخطبة . وتمت فينا الرغبة، ونمت لنا المحبة وعمّت الهيبة والرهبة ، وما سمت لكل ذى رتبة سامية إلا بالانخفاض لأمرنا الرتبة ، والدولة ناضرة . والحدائق ناظرة الأحداق ، منيفة الإشراف منيرة الإشراق ، متعالية السناء سنية العلاء ، وبنعمة الأولياء متوالية النعماء ، سامية الهمة هامية السماء ، نامية الصحة صحيحة الأسماء، والعوارف إلى ذوى الشكر منا فوارع، والصنائع فى ذرى الابتهاج بنا نصائع، والعزائم (٩٨ ب) إلى الجهاد فى سبيل الله عز وجل نوازع ، وقد زالت العوائق وارتفعت الموانع ، ونجحت الآمال ورجحت ، وتمكن ساعد القدر وساعد إمكان القُدر .

---

(١) انظر ما سبق ص ٢٢٣ سطر ١٥ ، وحاشية رقم ٥ .

رجعنا الى اتمام الحديث

ولما تسلم السلطان البلاد المذكورة ولاها جماعة من أصحابه ومماليكه وأمرائه ، فأما شهرزور فإنه أرسل إليها مملوكه مجاهد الدين أياز ، وندب للنظر فى تلك الأعمال شمس الدين بن الفراش ، وأقطع البوازيج لبعض خواصه ، ووقف ضيعة تعرف ببا قيلا على ورثة شيخ الشيوخ ببغداد .

ثم رحل السلطان من الموصل فى شوال متوجها إلى نصيبين فكان فيها ثامن الشهر المذكور وأقام بها أياما ، ثم رحل منها إلى حران فى العشر الآخر من شوال فكان وصوله إليها فى آخره ، ولم يزل السلطان بحرّان إلى آخر السنة وكان قد ألمّ به مرض شديد مدة مقامه فى حران وطال ذلك به ، وكثرت الأراجيف عنه فى تلك المرضة .

* * *

ذكر شىء من مكارم أخلاقه رضى الله عنه

ذكر بعض أصحابنا أن السلطان لما اشتد به المرض بحران وكان قد أتاه جماعة كبيرة من سائر بلاد الإسلام طلباً لإنعامه عليهم على جارى عادته وحسن سجيته قال : فاستغاث الناس ومن هناك من القاصدين له والسائلين ، فسمع ضجة الناس فقال : « ما هذه الضجة » ؟ فقيل له « هؤلاء الوافدون عليك قد اجتمعوا على بابك متأسفون على ما بك » قال : « فأمرنى بكتب أسمائهم فكانوا خلقاً كثيراً ، فأعطى كلامنهم على قدره وما قسم الله تعالى على يده ، فكان مالا كثيراً » ، وسارت الأخبار بمرضه .

فأما أخوه الملك العادل سيف الدين أبو بكر فإنه سمع بحلب مرض أخيه فسار إلى حران يقطع المنازل فوصلها بعد أيام ، فأقام بها عند السلطان

لضبط الأمور وسياسة الجمهور والجلوس فى نَوْبَتِيه[1] لتولى مصالح الرعية ووظائف السماط والعمل فى كل مهم وتنفيذ ما يخرج من المراسيم السلطانية (١٩٩) وسماع مراسلة الجوانب وغير ذلك .

واتصلت بنا الأخبار إلى مصر والكتب من عنده بمرضه ، وكان والدى الملك المظفر حينئذ بها ومتوليا[2] على ممالكها ، ثم تواترت إلينا كتبه بعافيته وركوبه ، فسررنا بما مَنّ الله به تعالى على الإسلام وأهله بعافيته .

* * *

ذكر من توفى فى هذه السنة من الأماثل وغيرهم ممن نذكره :

فيها توفيت عصمة الدين ابنة معين الدين أنر وكانت فى عصمة نور الدين محمود بن زنكى ، فلما توفى وخلفه السلطان بالشام فى حفظ البلاد ونصرة الإسلام تزوَّج بها فى سنة اثنتين وسبعين [وخمسمائة] وكانت من النساء العفائف ، ذات معروف[3] وصدقة وصلاح .

وفيها توفى[4] سعد الدين مسعود بن أنر رضى الله عنه .

وفيها توفى عز الدين جاولى وكان من أكابر الأمراء .

وفيها قتل قوام الدين أبو محمد عبد الله بن سماقة وزير قرا أرسلان ، قتل بآمد ، قتله مماليك مخدومه وذلك أنه كان قد تمكن واستولى على ما كان

---

(١) يقصد بذلك النوبة السلطانية . راجع مفرج الكروب ١٧٢/٢ .

(٢) فى الأصل « متولى » .

(٣) هو الخاتون عصمة الدين ابنة معين الدين انر وزوجة نور الدين محمود ، فلما مات عنها تزوجها صلاح الدين سنة ٥٧٢ هـ ، وكانت دينة عفيفة برة ، كثيرة الاوقاف على الخير ، أنشأت مدرسة للحنفية بدمشق ورباطا للصوفية ، ولما ماتت دفنت بتربتها التى أنشأتها بقاسيون دمشق ، انظر النعيمى. الدارس فى تاريخ المدارس ، ٢٤٤/٢ — ٢٤٥ النجوم ، ٧٨/٦ ، ٩٩ .

(٤) هو أخو خاتون عصمة الدين وقد مات بعدها فى نفس السنة ، انظر Ency. Isl. Arte: Khatun.

بصدده، وكان أحد الأمراء الكبار — ويُعرف بالصلاح — فبلغ أنه قد تولىّ الأمر معه وكلاهما مستشعر من صاحبه ، فسبق الوزير إلى قبضه وحبسه واستقل فى التدبير ، فلما سمع الملك الناصر صلاح الدين بهذه الواقعة من الوزير وما حدث منه فى حق الأمير المذكور قال يوماً فى مجلسه : « لقد تعرّض هذا للخطر وكأنىّ به وقد ذهبت نفسه» فكأنه نطق بما كان فى القدر المحتوم ، فلم تكن إلا أيام قلائل [إلاّ] والخبر ورد بقتله .

ذكر السبب فى قتله

وذلك أن جماعة من المماليك المفردين تآمروا على قتله فجاء أحدهم إليه وهو جالس فى ديوانه وعنده جماعة من الأماثل والأكابر وغيرهم فقال له : « الملك يدعوك وحدك ليسألك عن حديث عندك » ، فقام ودخل الدهليز فثاروا عليه وقتلوه ، ثم أخرجوا الصلاح من الحبس ، فلما تمكن قبض وبسط ، وشرّد أصحاب الوزير وقتل منهم من أدركه ، ثم إنه قتل أولئك القاتلين (٩٩ ب)[1] إلى أن أدرك الأمير رشده .

وفيها توفى الأمير ناصر الدين[2] بن شيركوه بحمص فى تاسع ذى الحجة من السنة المذكورة .

وفيها توفى الفقيه مهذّب الدين عبد الله بن أسعد الموصلى بحمص، وسأذكر ما تجدّد من الأمور السلطانية فى سنة اثنتين وثمانين إن شاء الله تعالى .

وفيها تجهّز أبو يعقوب بعسكر زهاء على عشرين ألفاً ، وجمع جموعا

---

(١) ورد بعد هذا أربع كلمات مطموسة .

(٢) راجع عن موته ابن الاثير : الكامل ١١/٢١٠ — ٢١١ ، وابن واصل : مفرج الكروب ٢/١٧٤ ، والمقريزى : السلوك ١/٩٠

كثيرة لقصد علي بن اسحق ورجع مكسوراً[١] .

* * *

واقعة قراقوش المظفري

وفي هذه السنة وصل إلى نواحي قشطيلة أبو الحسن علي صاحب مايرقة.[٢] لأنه كان خرج إلى بجاية وملكها وكسر السيد أبا علي بن عبد المؤمن وأخذ منه أموالا عظيمة وسار إلى مرعية فملكها وعاد من فوره راجعاً إلى ناحية المشرق، وجعل بجاية وراء ظهره وترك بها أخاه أبا زكرى ونزل هو على قسطنطينة الهواء محاصراً لها فأقام عليها أربعة أشهر. فوصل إلى بجاية عسكرُ الموحدين تقدمهم السيد أبو زيد عمر بن عبد المؤمن ، فلم يقدر أبو زكرى على الإقامة ببجاية فلحق أخاه إلى قسطنطينة . وسار إليهما أبو زيد فحبسه فانهزموا بين يديه إلى قلعة[٣] ابن حماد فأخذوها ونهبوها فلحقهم فانهزموا إلى بلره أخذوها أيضاً ونهبوها ، فسارع إليهم أبو زيد فدخلوا نفطة[٤] وكدكين من عمل قشطيلة ، وسمعوا بشرف الدين أنه على الحامة فنفذوا إليه رسولا وقالوا: «إننا قوم من بني العباس ونريد دولتهم ، ونحن نريد أن نكون وإياك مجتمعين» ، فنفذ إليهم شرفُ الدين بهاءَ الدين ساروج ومعه ستون فارساً من أجناده وشطار عسكره ، فلقيهم على حامة البهاليل

---

(١) ذكر ابن الأثير في الكامل هذا الخبر بتوسع تحت عنوان « ذكر ملك المنتصر والعرب افريقية وعودها الى الموحدين » .

(٢) مايرقه جزيرة في شرق الأندلس . مراصد الاطلاع ١٣٤٦/٣ . أما بجاية فقد عرفها نفس المرجع ١٦٢/١ بأنها مدينة على ساحل البحر بين افريقية والمغرب . أما قسطينية الهواء فقلعة كبيرة عالية من حدود افريقية مما يلي المغرب . شرحه ١٠٩٢/٣ — ١٠٩٣ .

(٣) سماها ياقوت : معجم البلدان . قلعة حماد . وهي في الأصل « ابن » وقد صحح ما بالمتن بعد مراجعة مراصد الاطلاع ١١١٧/٣ — ١١١٨ حيث عرفه بأنها مدينة بها قلعة عظيمة تسمى افربوشت وهي قرب أشير من أرض المغرب الادنى .

(٤) غير منقطة في الأصل وقد ضبط الاسم على رسمه في مراصد الاطلاع ١٣٨٢/٣ حيث قال « مدينة بافريقية من أعمال الزاب الكبير » .

يحاصرونها ، وقد كانوا نزلوا على توزر[1] فما قدروا عليها ولا على نفطة وكدكين ، فلما وصلت الأتراك إليهم رجعوا إلى الحامة المذكورة فأخذوها عنوة وقتلوا فيها ألفا وسبعمائة رجل ونهبوها (١٠٠ ا) وكانت من البلاد الحسنة الطيبة الكثيرة البساتين والفواكه [وانعقد[2] الصلح] فتقررت القاعدة على أن تكون البلاد بينهما نصفين ، يكون لشرف الدين من البلاد : نوبة ، ومن نوبة إلى الغرب للمايرقى ، ومهما فتحوه كان قسمة بينهما ، واتفقوا على ذلك وتحالفوا وتجمعوا ، ولم يزالوا بقية سنتهم يرحلون وينزلون من موضع إلى موضع ويتمادون ، وأصحاب المايرقى يقلون وأصحاب شرف الدين يكثرون ، لأن الميارقة ما كان لهم مدد من خليفهم ، وأصحاب شرف الدين لهم الإقطاعات تصل إليهم من جبل نفوسة ومطماطة وبلاد نفزاوة وغيرها .

* * *

ودخلت سنة اثنتين وثمانين [وخمسمائة] . وسأذكر واقعته فيها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

* * *

سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة

فيها نقل إلى الخليفة أن حاجب الباب يعشق امرأة مغنية يقال لها خطليشة الظفرية وكانت مستحسنة ، وأنه يمضى إليها إلى الجانب الغربى من بغداد ، فلم يصدق ذلك .

وكان أستاذ الدار ابن الصاحب يثنى على المذكور ، والخليفة يتمنى له

---

(١) مدينة فى أقصى افريقية من نواحى الزاب الكبير من أعمال الجريد ، انظر ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ١/٢٨٠ .

(٢) ما بين الحاصرتين غير مقروء فى الاصل .